العدد 7 مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية تشرين1 2024
No. 7 Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences October 2024
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

تباينُ الخطاب الدلالي بين الأنبياء واقوامهم- سورة هود أنموذجا

م . م . أحمد عباس داود
مديرية تربية نينوى

الملخص :-

يهدف هذا البحث الى ابراز نوعين من الخطاب في القرآن الكريم – سورة هود – وهما خطاب الأنبياء لأقوامهم ، وخطاب أقوامهم لهم . فضلاً عن إيجاد الاختلاف الدلالي بين الخطابين من حيث استناد خطاب الأنبياء الى الدليل والمنطق ، والغاية منه هداية الناس واخراجهم من الظلمات الى النور . وافتقار خطاب أقوام الأنبياء الى الحجة والبرهان ، والغاية الأساسية منهُ هو الجدال وتثبيت الذات والانتصار لها دون النظر الى عواقب الأمور . وقد توزع هذا كلُّهُ على ثلاثة محاور ، فأمّا المحور الأول فقد ضَمَّ قصة سيدنا نوح (عليه السلام) وجداله مع قومه، وحوى المحور الثاني قصتي هود وصالح (عليهم السلام) ، وامَّا المحور الثالث فكان الحديث فيه عن قصتي لوط وشعيب (عليهما السلام).

كلمات مفتاحية: سورة هود، الانبياء، الخطاب

Semantic discourse divergence between the prophets And their people - Surat Hud as a model

A.L. Ahmed Abbas Dawood
Al-Mowfaqiah Girls' Secondary School

Summary :-

This research aims to highlight two types of discourse in the Holy Qur'an - Surat Hud - namely, the prophets' address to their people, and their people's address to them. In addition to finding the semantic difference between the two speeches in terms of the prophets' speech being based on evidence and logic, and its purpose is to guide people and bring them out of darkness into light. And the discourse of the peoples of the prophets lacks argument and proof, and its main purpose is to argue, establish oneself and support it without looking at the consequences of matters. All of this was divided into three axes. As for the first axis, it included the story of our master Noah (peace be upon him) and his argument with his people. The second axis contained the stories of Hood and Saleh (peace be upon them), and as for the third axis, the talk was about the two stories of Lot and Shuaib (peace be upon them both).

Keywords: Surah Hud, Prophets, Speech

توطئة :_

إن علماء القرآن انطلقوا من وحدة النص الكريم ((مصدرا وموضوعا)) فقد تماسك النص لغة وانسجم مضمونا وفقا لمراد الله الذي تعهده بالحفظ على هذا النحو الذي ترتبت فيه الآياتُ والسَّوَر الترتيب الذي اقتضى تماسك كل دال مع ما يليه» [1] أو كما يؤكد السيوطي متحدثا عن متانة سبك النص الكريم بقوله «فإذا ترتبت اللفظة من القرآن الكريم عُلِمَ بإحاطته أي لفظة تصلحُ أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ،ثم كذلك من أوّل القرآن الى آخره » [2] «فالخطاب في هذا الفهم ذو طابعٍ كلي شامل ، لا يتوقفُ على البعدِ اللساني وحده ، ولا على البعد الاجتماعي والتاريخي الذي يعدُّ النصَ انعكاساً لحركة الدلالة في التاريخ ، كما لا يقتصرُ على البعد التداولي المعني بالتواصل في موقف محدد، ولكنّهُ يمازجُ بين هذه الأبعاد نظراً وتطبيقا ، فترى هذا مطوياً في ذلك ، ولعلّ هذا الدمجُ بين الشقين أو ما اعتدنا نحنُ أن نراه كذلك هو ما يميزُ طرحهم ، وجعلهِ قادرا على البقاء والعطاء رغم توالي السنين » [3]

« وعلى هذه النقطة نجد أنفسنا ضمن فلسفة الادراك الشمولي التي تؤكد أنهُ ليس فقط حصيلة الأجزاء، ولكنّهُ ينطوي على ما في الأجزاء وزيادة ، وعلى هذا فلا يكفي أن نتوقف إزاء ما في النص من مفردات وجمل » [4] ، « فالوقوف عند هذه الوحدات بمستواها اللغوي الصرف لن يسهمّ في الكشف عن الخواص النوعية المميزة للنص » [5]

المحور الأول : قصة سيدنا نوح مع قومهِ

قال تعالى : ((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)) معنى الآية أي : أرسلنا نوحاً ملتبساً بهذا الكلام وهو قوله « إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ » [6] ، وقد تكون الآية هي حكاية مخاطبتهِ لقوله ، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبةٍ الى مخاطبة» [7] «والمراد من النذير كونه مهددا للعصاة بالعقاب ، ومن المبين كونه مُبيناً ما أعدّ الله للمطيعين من الثواب » [8] ، وقوله ((لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)) أي : انذركم ألا تعبدُوا إلاّ الله ... وقيل انهُ دعاهم الى التوحيد ؛ لأنه من أهم الأمور اذ لا يصلحُ شيءٌ من العبادات آلا بعدَ التوحيد » [9].
،« وقوله ((إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)) انما قال أخاف مع أنَّ عقاب الكفار مقطوع عليه لأنهُ لم يَعلمْ ما يؤول اليه عاقبة أمرهم من ايمانٍ أو كفر ، وهذا لطفٌ في الاستدعاء وأقرب الى الإجابة في الغالب» [10] « و جملة (أخاف عليكم) ونحوها مثل : أخشى عليك تستعمل للتوقع في الأمر المظنون أو المقطوع به باعتبار امكان الانفلات من المقطوع به » [11]

بعدَ الجدية في الخطاب من سيدنا نوح (عليه السلام) والخوف على قومه ، بدأ خطابُهم على لسان الملأ بـ ((فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)) وقد طعنوا في نبوته بثلاثة أنواع من الشبهات : (فالشبهة الأولى) أنّهُ بشر مثلهم،(والشبهة الثانية) كونه ما اتبعه إلا اراذل من القوم كالحياكة وأهل الصنائع الخسيسَة ، قالُوا : ولو كنت صادقا لا تبعك الأكياسُ من الناس ، والاشراف منهم ، (والشبهة الثالثة)، لا نرى لكم علينا من فضل لا في العقل ولا في رعاية المصالح العاجلة ولا في قوة الجدل، فاذا لم نُشاهِدْ فضلَك علينا في شيء من هذه الأحوال الظاهرة، فكيف نعترفُ بفضلك علينا في أشرف الدرجات واعلى المقامات» [12]. وإنَّ قومَ نوح (عليه السلام) أخطأوا الاستدلال فقالوُا: ((مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا)) و الرؤية هنا رُؤية العين ؛ لأنَّهم جعلُوا استدلالهم ضروريا من المحسوس من أحوال الأجسام ، أي : ما نراك غير إنسان ، وهو مماثلٌ للناس لا يزيدُ عليهم جوارحَ أو قوائمَ زائدة » [13].

«وقالُوا :((وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ))فجعلوا اتباع الناس المعدودين في عاداتهم أراذل محقورين دليلا على أنهُ لا ميزة له على ساداتهم الذين يلوذ بهم اشراف القوم واقوياؤهم . فنفوا عنه سبب السيادة من جهتي ذاته واتباعه» [14] « ولّما وصفوا كُلَّ فريق من التابع والمتبوع بما ينفي سيادة المتبوع وتزكية التابع جمعوا الوصف الشامل لهما ، وهو المقصود من الوصفين المفرقين ، وذلك قولهم ((وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ)) فنفوا أن يكون لنوح(عليه السلام) واتباعه فضلٌ على الذين لم يُؤمنوا به حتى يكون نوح (عليه السلام) سيداً عليهم ، ويكون أتباعُه مفضلين بسيادة متبوعهم » [15] «وقولُه ((بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)) إبطالٌ للمنفي كله الدال على صدقه في دعواه بإثباتٍ ضدَّ المنفي .. وهذا الظن الذي زعموه مستند الى الدليل المحسوس في اعتقادهم » [16]. وبعد الدلائل المحسوسة الظاهرة التي لا يمكنها أن تفضل بين اثنين من الناس ، والمستندة الى الظن والشك جاءَ الرّدُ على لسان نوح (عليه السلام) في قوله تعالى : ((قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)) « فقوله :((يا قومِ أرأيتم)) أي: أخبروني ، وفيه إيماءٌ الى ركاكة رأيهم المذكور، ((إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ)) حجة ظاهرة ((وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)) هي : النبوة » [17] وقيل في قول نوح (عليه السلام) هذا هو جواب عن الشبهات الثلاثة التي الصقها قومُه به» [18] ، وقوله : (فعميت عليكم) أي: خفيت لقلة تدبركم فيها» [19]. « وإذ قد كان طعنهم في رسالته مُدللاً بأنَّهم ما رأوا له مزية وفضلاً ، وما رأوْا أتباعهُ الا ضعفاء قومهم وإنّ ذلك علامة كذبه ، وضلال أتباعه ، سلك نوحٌ (عليه السلام) في

مجادلتهم مسلك إجمال لا بطال شبهتهم ثم مسلك تفصيل لردِ أقوالهم ، فأمَّا مسلك الإجمال ، فسلك فيه مسلك القلب بأنهم إن لم يروا فيه وفي أتباعه ما يحملُ على التصديق برسالته ، فكذلك هو لا يستطيعُ أن يحملَهم على رؤية المعاني الدالة على صدقه ولا يستطيعُ منع الذين آمنوا به من متابعتهِ والاهتداء بالهدى الذي جاء به » [20] « وقولُه ((أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)) الى آخره معناه إن كنت ذا برهان واضح ومتصفاً برحمة الله بالرسالة بالهدى فلم تظهر لكم الحجة، ولا دلائل الهدى ، فهل أُلزمكم أنا وأتباعي بها ؟ أي : بالاذعان اليها والتصديق بها إن أنتم تكرهون قبولها » [21] .

« ومعنى سيدنا نوح (عليه السلام) في سوق الأدلة المنطقية لقومه في قوله تعالى ((وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)) » [22] . نلاحظ في خطابات سيدنا نوح (عليه السلام) إضافة قومه الى نفسه بضمير المتكلم وهذا دليل حرصهِ عليهم ، وخوفه من مآلهم اذا ما خالفوا قوله « وناداهم بذلك تلطفا بهم واستدراجاً لهم» ((لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ)) ، أي : لا أطلب منكم على ذلك مالاً تؤدونه اليّ بعدّ ايمانكم ، وأجرا لي في مقابلة اهتدائكم ((إن اجريَ الا على الله)) فهو سبحانه يثيبني على ذلك في الآخرة» [23] ((وَمَا أَنَا ۚ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)) ، «قيل : هو جواب عَمَّا لَوّحُوا به بقولهم : ((وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا)) وقولُه : ((إنهم ملاقوا ربهم)) تعليل من طردهم كانّهُ قيل : لا أطردهم ولا أبعدهم عن مجلسي ؛ لانّهم من أهل الزلفى المقرّبون الفائزون عند الله » [24]

((وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)) «أي : بكل ما ينبغي أن يَعلم ، ويدخل فيه جهلهم بمنزلتهم عند الله تعالى ، وبما يترتب من المحذور على طردهم وبركاكة رأيهم في التماس ذلك » [25] وإعادة الخطاب بـ ((يا قوم)) تأكيد لما في الخطاب به أول مرة من المعاني ، وحذف مفعول (تجهلون) للعلم به ، أي: تجهلون ذلك و زيادة قوله ((قوما))يدل على أنّ جهلَهم صفةٌ لازمة لهم كأنّها من مقومات قومتيهم» [26] ((ويا قومِ مَن ينصرني من الله)) « الاستفهام للإنكار أي : لا ينصرني أحدٌ من ذلك ((إن طردتهم)) وأبعدتهم عني وهم بتلك المثابة والزلفى منه تعالى » [27] . «وقيل : هو استفهام بمعنى تقرير وتوقيف ، أي : لا ناصرَ يدفَعُ عني عذاب الله إن ظلمتهم بالطرد» [28] .

وقوله : ((أفلا تذكرون)) «أي : أفلا تتفكرون فتعلمونَ أنّ الأمرَ على ما قلتهُ ، وفرّق عليُّ بن عيسى بينَ التفكر والتذكر ، بأنَّ التذكير : طلب معنى قد كان حاضرا للنفس ، والتفكير : طلب معرفة الشيء بالقلب وإن لم يكن حاضرا للنفس » [29] «وفرَّع على ذلك إنكاراً على قومهِ في اهمالهم التذكر ، أي التأمل في الدلائل ومدلولاتها، والأسباب ومسبباتِها» [30] ((وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ))«هذا تمام الحكاية عمَّا قالَهُ نوح(عليه السلام)لقومهِ ،ومعناهُ :لا أرفعُ نفسي فوقَ قدرها فأدّعي أنَّ عندي مقدورات الله تعالى فأفعل ما اشاءُ واعطي ما اشاءَ وامنعُ مَن اشاء ...» [31] «وتزدري أي : تستقِلُّهم ، تقديره تزدريهم أعينكم ، أي : تستقلهم وتستهِنُ بهم » [32]

«وأصل الازدراء الاعابة ، يُقال : ازدراهُ اذا عابَهُ ، والتعبير بالمضارع للاستمرار ..

((لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا)) في الدنيا والآخرة » [33] « وجملة ((اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ)) تعليل لنفي ان يقول : ((لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا)) ولذلك فُصِلَت الجملة ولم تعطَف ، و ((إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)) أبلغُ في اثبات الحكم من : إني ظالم ،واكدهُ بثلاثة مؤكدات : إنّ ولام الابتداء ، وحرف الجزاء تحقيقا لظلم الذين رَمَوا المؤمنين بالرذالة وسلبُوا الفضل عنهم ؛ لأنهُ أراد التعريضَ بقومه في ذلك » [34]. ((قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)) «معنى قوله تعالى : ((قَدْ جَادَلْتَنَا))أي : خاصمتنا ونازعتنا » [35]

و« الجدالُ :المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة واصلُهُ جدلتُ الحبل أي: أحكمتُ فَتلَهُ ومنه الجديل» [36] ((فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا)) «أي فاطلتَهُ» [37] ((فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا))« من العذاب المَعجل » [38] ((إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)) «أي : في حكمك بلحوق العذاب ان لم نؤمن بك » [39] . ((قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ))

«كأنّهُ قال الاتيان به أمر خارجٌ عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله تعالى » [40] ، ((وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)) «أي : لا تفوتونه بالهرب» [41] . «وهذا قولٌ وقع عقبَ مجادلته المحكية في الآية قبل هذه ، فتعين أنّ تلك المجادلة كانت آخر مجادلة جادلها قومهُ ، وانّ ضجرهم وسآمتهم من تكرار مجادلته حَصَل ساعتئذ فقالوا قولهم هذا ، فكانت كلها مجادلات مضت ، وكانت المجادلة الأخيرة هي التي استفزت امتعاضهم من قوارع جدلهِ حتى سئموا تزييف معارضتهم وأدائِهم شأن المبطل اذا دمغتْهُ الحجة ، ولذلك ارادُوا طيّ بساط الجدال ، وارادُوا افحامه بان طلبُوا تعجيل ما توعدهم من عذاب ينزل بهم كقوله آنفاً ((إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)) » [42] ((وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)) ((وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي)) «أي : إن كان اللهُ يريدُ أنْ يغويكم فانه لا ينفعكم نصحي البتة »[43] ((أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)) «أي كأنّهُ قال : بل أمع هذا البيان أيضا يقولون : (افتراه)» [44] ((قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ)) «أي اختلفتُهُ كما تزعمون ((فَعَلَيَّ إِجْرَامِي)) «أي عقوبة جرمي ((وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)) أي لا أُوخذ بجرمكم » [45] «وفي هذه الجملة توجيه بديعٌ وهو افادةُ تبرئة نفسه من أن يفتريَ القرآن فانّ افتراء القرآن دعوى باطلة ادّعوها عليه فهي اجرام منهم عليه ، فيكون المعنى وانا بريءَ من قولكم الذي تجرمونه عليَّ باطلاً »[46]

المحور الثاني : قصتا هود وصالح (عليها السلام)

قال تعالى : ((وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ○ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ))

((وَإِلَىٰ عَادٍ))عطفٌ على قوله ((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ))في قصة نوح (عليه السلام) ، و((عادٍ)) قبيلةٌ وكانت عربا و ((هودٌ)) عليه السلام منهم وجعلَهُ ((أخاهم)) بحسب النسب والقرابة »[47] ، «ووصف هود بأنه أخو عاد ؛ لانّهُ كان من نسبهم كما يقال : يا أخا العرب ، أي : يا عربي »[48]

وافتتاح دعوته بنداء قومهِ لاستدعاء أسماعهم إشارة الى أهمية ما سيلقي اليهم ، وجملة ((إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)) توبيخ وانكار . فهي بيان لجملة ((مالكم من الهٍ غيره)) ... وإعادة النداء في أثناء الكلام تكرير للأهمية يُقصدُ به تهويل الأمر واسترعاء السمع اهتماماً بما يستمعونَهُ ، والنداء هو الرابط بين الجملتين »[49] . والتعبير بالموصول ((الَّذِي فَطَرَنِي)) دون الاسم العلم لزيادة تحقيق أنه لا يسألهم على الارشاد أجرا بأنّهُ يعلمُ أنّ الذي خلقهُ يسوق اليه رزقَهُ ؛ لانّ اظهار المتكلم علمَهُ بالأسباب يكسبُ كلامه على المسببات قوة وتحقيقاً »[50]. « وقولهُ : ((وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم)) من الشرك ((ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)) أي : ارجعُوا اليه تعالى بالطاعة ، وقيل : الاستغفار كناية عن الايمان »[51] .« والمدرارُ : أصلُهُ من الدر والدّرَّةِ أي اللبن ، ويُستعارُ ذلك للمطر »[52] « والمدرارُ : الكثير الدرور ، كالمغزار ، و انما قصَدَ استمالتهم الى الايمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر، وزيادة القوة ؛ لأنَّ القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات حَرَّاصاً عليها أشدَّ الحرص ، فكانوا أحوجَ شيء الى الماء وكانوا مدلين بما أُوتوا من شدة القوةِ والبطش » [53] . « وقوله ((ولا تتولوا مجرمين)) تحذير من الرجوع الى الشرك ، و التولي : الانصراف ، وهو مجازٌ عن الاعراض »[54] وواضحٌ – مما تقدم - انّ خطاب هود (عليه السلام) لقومه كان في غاية الخوف عليهم ، والحرص على هداهم ، وكان ذلك بإضافة قومِه الى ضمير المتكلم تارة ،وبسوق الأدلّة العقلية والمنطقية لهم تارة أخرى ، و بترغيبهم بالأرزاق الإلهية إن هم آمنوُا ، كل ذلك من أجل اخراجهم من الضلال الى الهداية. وقوله ((قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))

« ((قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ)) أي : بحجة ومعجزة تبيّن صدقك ، ((وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ)) أي : لسنا بتاركي عبادة الأصنام لأجل قولك ((وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)) أي : مصدقين ، وانما حملهم

على دفع البيّنة مع ظهور أشياءٍ منها : تقليد الآباء والرؤساء ، ومنها إتمامهم لمن جاءَ بها حيثُ لم ينظرُوا فيها ، ومنها أنّهُ دخلت عليهم الشبهة في صحتها ، ومنها : اعتقادهم لأصول فاسدة دعتهم الى جحدها »[55] و « ((إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ)) معناه : ما نقول الا أنَّ بعض الآلهة لمَّا سببتها وضلّلْتَ عبادتها أصابك بجنون ، يقال : عَرَّ يعرُّ واعترى يعتري : إذا الَمَّ بالشيء ، فحينئذ جاهرهم هودٌ (عليه السلام) بالتبري من أوثانهم ، وحَضّهم على كيده هم وأصنامهم ، ويُذكر أنّ هذه كانت له معجزة وذلك أنّهُ حَرَّ من جماعتهم عليه مع انفراده .وقوتهم وكفرهم ، فلم يقدروا على نيله بسوء» [56]. وذهب ابن عاشور الى أنّ ((افتتاح كلامهم بالنداء يشيرُ الى الاهتمام بما سيقولونَهُ ، وأنّهُ جديرٌ بان ينتبه له؛ لأنهم انزلوه منزلة البعيد لغفلتهِ فنادوهُ . وجميعُ ما ادعوّه من الدعاوي وما ألصقوه من تُهم بهود (عليه السلام) كلام غير جارٍ على انتظام الحجة ؛ لانّهُ كلام ملفق من نوع ما يصدُرُ عن السفسطائين ، فجعلوهُ مجنونا وجعلوا سبب جنونه مسّاً من آلهتهم ، ولم يتفطنوا الى دَخل كلامهم، وهو أنَّ الآلهة كيف تكون سبباً في إثارة ثائر عليها »[57] .

قصة صالح (عليه السلام)

((وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ))

«والتقدير : وأرسلنا الى ثمودَ ، وقد تقدمّ القولُ في مثل هذا وفي معنى الاخوة في قصة هود »[58]

«وجملة ((هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ)) في موضع التعليل للأمر بعبادة الله ونفي إلهية غيره ، وكأنهم كانوا مثل مشركي قريش لا يَدّعون لأصنامهم خلقا ولا رزقا ، فلذلك كانت الحجة عليهم ناهضة واضحة » [59]

« وقولهُ ((قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا)) أي : كنا نرجو منك الخير لما كنت عليه من الأحوال الجميلة قبل هذا القول فالآن يئسنا منك ومن خيرك بأبداعك ما أبدعت »[60]

«فرعَ على التذكير بهذه النعم أمرهم باستغفاره والتوبة اليه ، أي : طلب مغفرة اجرامهم ، والاقلاع عَمَّا لا يرضاهُ من الشرك والفساد ، ومن تفنن الأسلوب أن جُعلت هذه النعم علة لأمرهم بعبادة الله وحده بطريق جملة التعليل وجعلت علةً أيضا للأمر بالاستغفار والتوبة بطريق التفريع »[61].

((قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ))

« قوله ((أَرَأَيْتُمْ)) هو من رؤية القلب ، أي تدبرتم ؟ والشرط الذي بعده وجوابه يسد مسدَ مفعولي ((أَرَأَيْتُمْ)) والبينة: البرهان واليقين . والرحمة في هذه الآية : النبوة »[62] «وقوله((فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ)) أي: فمن يمنعُ عذاب اللهِ عني إن عصيتُه مع نعمتِهِ عليَّ »[63]

« وقوله ((فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ)) معناه : فما تعطونني فيما أقتضيه منكم من الايمان واطلبكم به من الإنابة غير تخسير لأنفسكم »[64] . «وانما يتجهُ هنا أن يسألَ عن موجب تقديم (منه) الى (رحمة) هنا وتأخير (من عنده) عن (رحمة) في قصة نوح السابقة ، فالجواب لِأَنَّ ذلك مع ما فيه من التفنن بعدم الالتزام بطريقة واحدة في إعادة الكلام المتماثل ، هو أيضا أسعد بالبيان في وضوح الدلالة ودفع اللبس »[65]. «والإشارة بهذه الى الناقة حين شاهدُوا انفلاق الصخرة عنها ، واضافة الناقة الى اسم الجلالة ؛ لأنها خُلِقتْ بقدرة الله الخارقة للعادة ، وأوصاهم بتجنب الاعتداء عليها لتوقعه أنّهم يتصدونَ لها من تصلبهم في عنادهم والتمتع : الانتفاعُ بالمتاع ، والدار : البلدُ ، والمكذوب : الذي يخبرُ به الكاذب » [66].

المحور الثالث : قصتا لوط وشعيب (عليهما السلام)

((وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ))

«كانت مساءة لوط وضيق ذرعه ؛ لإنّهُ حسب أنهم إنس ، فخاف عليهم حيث قومه ، وأَنْ يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم[67] و ((سِيء بهم)) أي : أصابه سوء ، و ((الذرع)) مصدرٌ مأخوذٌ من الذراع ، ولمّا كان الذراع موضع قوة الانسان قيل في الأمر الذي لا طاقة له به : ضاق بهذا الأمر ذراع فلان »[68] ، ((وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)) «أي : هائلٌ شديد كثير الشر »[69] ((وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ)) « أي : يسرعون في المشي لطلب الفاحشة »[70] ((وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ)) « أي: كانت عادتهم إتيان الفاحشة في الرجال »[71] « قال لوط ((هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)) أُختلف في ذلك ، فقيل : أراد بناته لصلبه عن قتادة ، وقيل : أراد النساءَ من أمته ، لأنهنَّ كالبنات له .. ((فَاتَّقُوا اللَّهَ)) أي : فاتقوا عقاب الله في مواقعة الذكور ((وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي)) أي : لا تلزموني عاراً ولا تلحقوا بي فضيحةً .. ((أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)) « أي : أليس فيكم رجلٌ قد أصاب الرشد فيعمل بالمعروف وينهى عن المنكر »[72] .« ((قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ)) مستشهدين بعلمِه »[73] ((مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ)) « أي : مالنا في بناتك من حاجة ؛ لأنّ ما لا يكون للإنسانِ فيه حاجةٌ فانّهُ يرغبُ عَنْهُ كما يرغبُ عما لاحَقَّ له فيه »[74] ((وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)) «أي : تعلمُ ميلنا الى الغلمانِ دون النساءِ ، فلمّا لم يقبلوُا الموعظة تأسّفَ لوط (عليه السلام) على فقد تمكنه من دفاعهم بأن ((قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً)) أي : منعة وقدرة ((أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ)) أو أنضمُّ الى عشيرة منيعة تنصرني »[75] . « وجوابه بـ ((لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً)) جواب يائس من ارعوائهم ، ولو مستعملة في التمني ، وهذا أقصى ما أمكنَهُ في تغيير هذا المنكر ، والباءُ في ((بكم)) للاستعلاء ، أي : عليكم ، والمعنى : ليت لي قوة أدفعكم بها ، ويريدُ بذلك قوة أنصار ؛ لأنّهُ غريبٌ بينهم ومعنى ((أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ)) أو أعتصمُ بما فيه منعة ، أي : بمكان ، أو ذي سلطان يمنعني منكم ، و الركنُ : الشق من الجبلِ المتصل بالأرض »[76] ((وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)) ((وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)) «أي : وأرسلنا الى أهل مدينَ (أَخَاهُمْ شُعَيْبًا) فحذف أهل وأقامَ مدين مقامَهُ ، كما قال : ((واسأل القرية)) ومدين : اسم القبيلة أو المدينة التي كانوا فيها ،((قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ)) قد مَرَّ الحديث عَنْهُ ، ((وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ)) ، إي : لا تنقصُوا حقوق الناس بالتطفيف عند الكيلِ والوزن»[77] .

((إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ)) «يريد : بثروة واسعة ، تغنيكم عن التطفيف »[78] وَوَصْفُ اليوم بالإحاطة أبلغُ من وصف العذاب بالإحاطة ؛لأنَّ اليوم زمان يشتملُ على الحوادث، فاذا أحاط بعذابه، فقد اجتمع للمعذب ما اشتملُ عليه منه كما اذا أحاط بنعيمهِ »[79]

((وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ)) «أي: أوفوا حقوق الناس في المكيلات والموزونات بالمكيال والميزان بالعَدْل ((وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)) «أي : لا تنقصُوا الناسَ أموالهم في معاملاتهم »[80] ((وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)) «معناه : تسعون في فساد ،وكرَّرَ ((مفسدين))على جهة التأكيد »[81] ((بقيت الله)) ، « أي : ما يبقى لكم من الحلال بعدَ التنزه عما هو حرام عليكم ، ((خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)) بشرط أن تؤمنوُا »[82] « وامَّا مع الكفر فلا خيرَ لهم في شيء من الاعمال و((الحفيظ)) المراقب الذي يحفظُ أهوال مَن يرقب، والمعنى : إنما انا مبلغٌ والحفيظ المحاسب : هو الذي يجازيكم بالأعمال »[83] . « وخلاصة هذه الآيات أنّ سيدنا شعيب أمرَ قومَهُ بثلاثة أمور أحدهما : إصلاح الاعتقاد ، وهو من إصلاح العقول والفكر ، والثاني هو شيءٌ من صلاح العمل خُصَّ بالنهي ؛ لأَنَّ إقدامهم عليه كان فاشياً فيهم حتى نَسُوا ما فيه من قبحٍ وفساد ، وهذا هو الكف عن نقص المكيال والميزان ، والثالث : صلاح الاعمال والتصرفات في العالمِ بأنْ لا يفسدوا في الأرض »[84] ((قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ

نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ))واضحٌ الفرق بين الخطابين خطاب شعيب (عليه السلام) الذي يضيف قومَهُ الى ضمير المتكلم أي : ذاته الشريفة، بينما يخاطبه قومُه بنداء (يا شعيبُ) بالاسم الصريح ، وشتان ما بين الخطابين ، «واسنادُ الأمرِ الى الصلوات غير حقيقي إذ قد علم كلُّ العقلاء أنّ الأفعال لا تأمر ، والمعنى : أنّ صلاتهُ تأمره بأن يحملهَم على ترك ما يعبدُ آباؤهم »[85] « وجملة ((إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)) استئناف تهكّم وقد جاءت الجملة مؤكدة بالحرف ((إنّ)) ولام القسم ، وبصيغة القصر في الجملة ((لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ))[86] .

((قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ))

«ويستمرُ الخطاب الأبوي الحنون الصادر من النبي شعيب (عليه السلام) بـ ((يا قومِ)) و((وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا)) يريدُ خالصاً من الفساد الذي أدخلتم انتم اموالكم »[87] ، «وقيل في الرزق الحسن : النبوة ، و قيل : معناه هداني لدينه ووسَّعَ عليَّ رزقه ، وكان كثير المال »[88] « ومعنى : ((وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ))أي : لم اكن لانهاكم عن شيءٍ وانا أفعلُهُ »[89]

« وجملة ((إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ)) بيان لجملة ((ما أريدُ أن أُخالفكم الى ما انهاكم عنه)) ، لانْ انتفاء إرادة المخالفة الى ما أنهاكم عنه مجمل فيما يريدُ إثباتهُ من أضداد المنفي ، فبينَهُ بأنّ الضدّ المراد إثباتهُ هو الإصلاح في جميع أوقات استطاعته بتحصيل الإصلاح ، فالقَصْرُ قصرُ قلب) ((وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)) فسمى ارادته الإصلاح توفيقاً وجعله من الله لا يحصلُ في وقت الا بالله أي : بإرادته وهَدْيِهِ»[90]. « وجملة ((عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ)) في موضع الحال من اسم الجلالة أو من ((ياء)) المتكلم في قوله ((توفيقي))»[91] و« ((أنيب)) معناه : أرجعُ وأتوب »[92]

((وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)) « والمقصود نهيُهم عن أن يجعلُوا الشقاق أي : المعاداة سبباً للأعراض عن النظر في دعوته ، فيوقعوا أنفسهم في أن يصيبَهم عذاب مثلُ ما أصاب الأمم قبلهم فيحسبوا أنهم يمكرون به بأعراضهم وما يمكرون إلاَّ بأنفسهم »[93]

وفي هذا الخطاب غاية الخوف والحرص من شعيب (عليه السلام) على قومهِ من أن يضلّوا بسبب معاداته ، أي أنَّ النبي (عليه السلام) هنا لا ينتصر لذاته البتة بكل همهِ هو هدايتهم بأية صورة كانت ، وقومُه لا يريدونها . ((قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ))

« ومعنى:((مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ)) أي :ما نفقهُ صحة قولك ،وأمَّا فقهُهُم لفظُهُ ومعناه فمتحصّل »[94]

«ومعنى : أنّك تقول لا نصدق به ، وهذا مقدّمة لإدانتِهِ واستحقاقه الذم والعقاب عندهم في قولهم ((وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ)) ولذلك عطفُوا عليه ((وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا)) أي : وإنّك فينا لضعيفٌ ، أي: غير ذي قوة ولا مَنعَة ، فالمراد الضعيف عن المدافعة اذا رامُوا أذاه ، وذلك مما يُرى لانّهُ ترى دلائلَهُ وسماتهُ »[95] « وإعادة النداء في قوله تعالى ((يَا قَوْمِ أَرَهْطِي)) للتنبيه لكلامهِ وأنّهُ متبصرٌ فيه ، و الاستفهام إنكاري ، أي : اللهُ أعزّ من رهطي وهو كناية عن اعتزازه باللهِ لا برهطهِ فلا يربيهُ عدم عزة رهطهِ عليهم ، وهذا تهديدٌ لهم بأنّ الله ناصره ؛ لانّهُ أرسلَهُ فعززتُهُ بعزةِ مرسلهِ»[96] .

الخاتمة

في ختام بحثي الموسوم (تباين الخطاب الدلالي بين الأنبياء واقوامهم سورة هود انموذجا) توصلت الى نتائج عدة أسفر عنها البحث في أمهات كتب التفسير ، منها : أن خطاب السماء المتمثل بدعوة الأنبياء خطابٌ يحمل في دلالاته الرحمة والرأفة والحرص على هداية الناس وذلك من خلال الاستعانة بالدلائل المنطقية والفكرية تارة ، ومن خلال اللجوء الى أسلوب النصح والإرشاد تارة أخرى ، وباتخاذ سبيل

الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فضلاً عن تذكير أقوامهم بمصالحهم الدنيوية المؤدية الى رغد العيش ان هم استقامُوا وتابُوا من ذنوبهم مما يُؤدي لا محالة الى نجاتهم وفلاحهم في الآخرة .

أمَّا خطاب أقوامهم فكانَ يتسم بالجدل العقيم ، والانتصارِ للذات ، دون النظر الى عواقب الأمور ، وذلك من خلال إيجاد التهم الباطلة والصاقها بالأنبياء ظلما وعدوانا ، كالسفاهة والمسّ من الآلهة بسوء أو الضلال والخروج عن سنة الآباء والأجداد ، كل ذلك انتصاراً لمعتقداتهم وإبقاءً على امتيازاتهم ومكانتهم التي وضعهم الناس فيها ، وعدم اكتراثهم لما سيؤول اليه عواقب امورهم ، مما ادّى بهم عنادهم الى هلاكهم وتحقيق وعيد الله فيهم ، ووعده للأنبياء واتباعهم بوراثة الأرض والغلبة على اعدائهم .

الهوامش

[1]- النص والخطاب قراءة في علوم القرآن ، محمد عبد الباسط عيد :17

[2]- معترك الأقران في اعجاز القرآن ، السيوطي 28/11

[3]- النص والخطاب قراءة في علوم القرآن : 17

[4]-م . ن :19

[5] -بلاغة الخطاب وعلم النص ، د. صلاح فضل :253

[6]- ينظر : الكشاف ، الزمخشري :192

[7] - ينظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : 162/3

[8] - التفسير الكبير ، الفخر الرازي : 219

[9] - ينظر : مجمع البيان ، الطبرسي : 198/5

[10]- م . ن : 198/5

[11] - التحرير والتنوير ، ابن عاشور 12 / 44

[12] - ينظرُ: التفسير الكبير ، الفخر الرازي: 219

[13] - ينظر: التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 12/ 47

[14]- م . ن : 48/12

[15] - التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 49/12

[16] - م . ن : 49/12

[17] - روح المعاني ، الآلوسي : 239/11 . وينظر: تفسير أبي السعود: 33/3

[18]- ينظر : مجمع البيان ، الطبرسي : 199/5

[19] - ينظر : مجمع البيان ، الطبرسي : 199/5

[20] - التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 50/12

[21] - التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 50/12

[22] - روح المعاني ، الآلوسي : 240/11

[23] - روح المعاني :الآلوسي : 240/1، وينظر: مجمع البيان ، الطبرسي: 200/5،وينظر: تفسير أبي السعود :34/3

[24] - روح المعاني ، الآلوسي : 11/ 241 ، وينظر : تفسير أبي السعود : 35/3

[25]- م . ن : 241/11 .

[26] - ينظر :التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 12/ 53- 56

[27] - روح المعاني ، الآلوسي : 241/11

[28] - المحرر الوجيز ، ابن عطية : 165/3

[29] - مجمع البيان ، الطبرسي : 200/5

[30] - التحرير و التنوير ، ابن عاشور : 12/ 56

[31]- مجمع البيان ، الطبرسي : 200/5

[32] ـ المفردات في غريب القرآن ، الراغب الاصفهاني : 218

[33] ـ الكشاف ، الزمخشري : 243

[34] ـ التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 59/12

[35] ـ روح المعاني ، الآلوسي : 11/ 244 ، وينظر : مجمع البيان ، الطبرسي : 201/5

[36] ـ المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني :97

[37] ـ روح المعاني ، الألوسي :244/11 .

[38] ـ الكشاف : الزمخشري: 195 .

[39] ـ روح المعاني ، الآلوسي : 244/11 .

[40] ـ م . ن : 11 /244

[41] ـ مجمع البيان ، الطبرسي : 201/5

[42]- التحرير و التنوير ، ابن عاشور : 60/12

[43]- التفسير الكبير ، الرازي :226/17 ، وينظر : مجمع البيان ، الطبرسي : 201/5

[44]- روح المعاني ، الآلوسي : 11 / 247

[45]- مجمع البيان : 202/5 ، وينظر : تفسير أبي السعود : 39/3 .

[46]- التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 12/ 65 .

[47]- المحرر الوجيز ، ابن عطية : 3 /179

[48]- التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 12/ 94

[49]- ينظر : م. ن : 12 / 94

[50]- ينظر : م . ن : 12 / 95

[51]- روح المعاني ، الآلوسي : 279/11

[52]- المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني : 173

[53]- الكشاف ، الزمخشري : 207

[54]- التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 97/12

[55]- مجمع البيان ، الطبرسي : 5/ 218

[56]- المحرر الوجيز ، ابن عطية : 3 / 181

[57]- التحرير والتنوير : 12/ 97-98

[58]- المحرر الوجيز ، ابن عطية : 3/ 183

[59]- التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 12/ 107

[60]- مجمع البيان ، الطبرسي : 224/5

[61]- التحرير والتنوير : 108/12

[62]- المحرر الوجيز ، ابن عطيه : 3 /184

[63]- مجمع البيان ، الطبرسي : 244/5

[64] -المحرر الوجيز : 3/ 184

[65]- التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 110/12

[66]- ن . م : 113/12

[67]- الكشاف ، الزمخشري :218

[68]- المحرر الوجيز ، ابن عطية : 193/3

[69]- مجمع البيان ، الطبرسي : 236/5

[70]- م . ن : 236/5

[71]- المحرر الوجيز : 3/ 194

[72]- مجمع البيان : 236/5

[73]- الكشاف ، الزمخشري : 220

[74]- مجمع البيان ، الطبرسي : 236/5

[75]- م . ن : 5 /237

[76]- التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 12/ 130

[77]- مجمع البيان ، الطبرسي : 241/5

[78]- الكشاف ، الزمخشري : 223

[79]- ينظر : م . ن :223

[80]- مجمع البيان ، الطبرسي : 241/5

[81]- المحرر الوجيز ، ابن عطية : 3/ 199

[82]- الكشاف ،الزمخشري : 224

[83]- المحرر الوجيز :200/3

[84]- ينظر : التحرير والتنوير : 136/12

[85]- التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 12/ 141 .

[86]- م . ن : 12/ 142

[87]- المحرر الوجيز ، ابن عطية : 3/ 201

[88]- مجمع البيان ، الطبرسي : 5/ 241

[89]- التحرير والتنوير : 12/ 143

[90] - التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 145/12

[91] - م . ن : 12/ 201

[92] - المحرر الوجيز ، ابن عطية : 3/ 201

[93] - التحرير والتنوير : 12/ 147

[94]- المحرر الوجيز ، ابن عطية : 252/3

[95] - التحرير والتنوير ، ابن عاشور : 12/ 148

[96] - م . ن : 12 / 151 .

قائمة المصادر والمراجع

1- بلاغة الخطاب وعلم النص ، د. صلاح فضل – عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب – الكويت ، صدرت السلسة في 1978م .
2- تفسير أبي سعود ، لقاضي القضاة أبي السعود بن العمادي الحنفي ، 900 هـ - 982 هـ - تحقيق عبدالقادر أحمد عطا – مكتبة الرياض الحديثة بالرياض .
3- تفسير التحرير والتنوير ، محمد الطاهر ابن عاشور ، الناشر : الدار التونسية للنشر ، سنة النشر :1984
4- تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ، للإمام محمد الرَّازي ابن العلامة ضياء الدين عُمر ، 544-604 هـ دار الفكر الطبعة الأولى 1401هـ - 1981 م
5- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للإمام أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي ،المتوفى سنة 127 هـ . طبعه وصححَهُ علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
6- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوده التأويل ، للعلامة محمود بن عمر الزمخشري (467 – 538 هـ) تحقيق وتعليق ودراسة : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوّض ، شارك في تحقيقه الأستاذ الدكتور عبدالرحمن احمد حجازي ، مكتبة العبيكان
7- مجمع البيان في تفسير القرآن ، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي . وقف على تصحيحه وتحقيقه والتعليق عليه الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان الطبعة الأولى

8- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (546 هـ) تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .
9- المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني ، طبعه وراجعه محمد خليل عيتاني . دار المعرفة ، بيروت – لبنان الطبعة الخامسة 1428 هـ / 2007 م .

10-النص والخطاب قراءة في علوم القرآن ، د. محمد عبدالباسط عيد ، تقديم : الأستاذ الدكتور صلاح رزق ، مكتبة الآداب – القاهرة ، الطبعة الأولى : 1420 هـ - 2009 م .